مِنْ أَمْجَادِ الْجَزَائِرِ

(1962 - 1830)

سِلْسِلَة تَارِيخِيَّة ثَقَافِيَّة تَصْدُرُ عَنْ وَزَارَة الْمُجَاهِدِينَ

الشَّهِيد

يُوسُف بن دَامَرْجِي "الحَكِيم"

1958 - 1922

منشورات المتحف الوطني للمجاهد

تصدير

تصدر هذه السلسلة التاريخية المخصصة للشهداء الرموز الذين يزخر بهم تاريخ المقاومة والثورة التحريرية، لتنير أمام الأجيال ولاسيما الشباب معالم درب النضال والجهاد الذي شقه ملايين الشهداء الأبرار بدمائهم الزكية، وعبدوه بأجسادهم الطاهرة ليكون معبرا للجزائر ولشعبها إلى الحرية والاستقلال.

تعد هذه السلسلة مساهمة من وزارة المجاهدين في بناء الذاكرة الجماعية وإثرائها، تعزيزا للجهود التي ما فتئت الدولة الجزائرية تبذلها من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية، ودعم تواصل الأجيال وتلاحمها.

أرجو أن يجد الشباب الجزائري في هذه السلسلة ما يروي عطشه لمعرفة تاريخ بلاده وتضحيات شعبه خلال المقاومة والثورة التحريرية التي تعتبر مرحلة هامة في تاريخه المجيد.

محمد الشريف عباس

وزير المجاهدين

حقوق التأليف والنشر محفوظة للمتحف الوطني للمجاهد 2009
ر . د . م . ك : 978-9961-884-44-7
الإيداع القانوني : 2009-5878

المتحف الوطني للمجاهد

ص .ب 168 – المدنية – الجزائر
الهاتف : 00.213.021 . 66. 92. 08 – 65 . 45. 06
الفاكس : 00.213.021 . 66 . 91 . 54

البريد الإلكتروني : Email: mnm@museenat-moudjahid.dz

BP 168 EL - MADANIA - ALGER
TÉL : 00.213.021.66. 92.08-65.45.06
FAX:00.213.021.66.91.54

الشهيد

يوسف بن دامرجي "الحكيم"

1958 - 1922

أطْلَقَت الْفرْقَةُ الْمَسْرَحيَّةُ "وَفَاءُ" التّي أنْشَأتْهَا مُؤَسَّسَةٌ تَربْوِيَّةٌ بالجَزَائر، أسْمَاءً رَمْزِيَّةً عَلىَ أعْضَائهَا الدَّائمِينَ هُمْ عَلَى التَّوَالي: ذكْرَى، نضَالٌ، نَاصرٌ، خَالدٌ، تَخَصَّصَتْ في التَّعْريف بشُهَدَاء الْجَزَائرِ، مُسْتَغلَّةً إحْيَاءَ مُنَاسَبَاتِ اسْتِشْهَادِهِمْ.

وَبمُنَاسَبَة إحْيَاء ذكْرَى اسْتشْهَاد الحَكيم يُوسُفَ بَنْ دَامَرْجي أَعَدَّت الْفرْقَةُ نَشَاطًا لِيُقَدَّمَ خِلاَلَ عُطْلَة الصَّيْف.

صَعدَتْ ذكْرَى الرُّكْحَ [المنَصَّةَ] وَقَدَّمَت الْمَوْضُوعَ أمَامَ الحَاضرينَ، وَهيَ تَلُفُّ جَسَدَهَا بالْعَلَم الْوَطَنِّي، وَتَحْملُ في إحْدَى يَدَيْهَا مشْعَلاً وَفي الْيَد الْأخْرَى صُورَةَ الشَّهيد، ثُمَّ عَلَّقَتْ صُورَةَ الشَّهيدِ فَوْقَ اللاَّفتَة الْمُثَبَّتَة عَلَى الجدَارِ

وَالحَاملَةِ لتاريخ 19 أوت 1958، وَتَوَجَّهَتْ إِلَى الْجُمْهُورِ قَائِلَةً :

لاَ شَكَّ أَنَّ بَعْضَكُمْ يَعْرِفُ اسْمَ صَاحِبِ هَذِهِ الصُّورَةِ، فَمَنْ هُوَ؟

تَكَلَّمَ الْأَوَّلُ فَقَالَ: هُوَ الْحَكِيمُ يُوسُفُ بْنُ دَامَرْجِي.

فعَقَّبَ عَلَيه الثَّاني: بَلْ، قُلْ الدَّمَرْجِي دُونَ مَدٍّ. فَعَقَّبَ الثَّالِثُ عَلَيْهِمَا قائِلاً: بَلْ يُنْطَقُ دُونَ "اَلْ"، التَّعْرِيفِ (دَامَرْجِي).

أَخْرَجَتْ ذِكْرَى شَهَادَةَ مِيلاَدِ الشَّهِيدِ، الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنَ البَلَدِيَّةِ التِّي وُلِدَ فِيهَا وَقَرَأَتْ عَلَى مَسْمَعِ الجَمِيعِ مَضْمُونَهَا الآتِي:

فِي يَوْمِ 18 أوت 1922 وُلِدَ يُوسُفُ بْنُ دَامَرْجِي بن بلْقَاسِمْ وَنَفِيسَةَ سَبْيَا بِنْتِ أَحْمَدَ،

بِمَدِينَةِ مَلْيَانَةَ، فَتَوَجَّهَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ إِلَى اللاَّفِتَةِ الْمُثَبَّتَةِ عَلَى الْجِدَارِ، وَقَالُوا: إِنَّهَا مُصَادَفَةٌ غَرِيبَةٌ.

ثُمَّ وَاصَلَتْ ذِكْرَى قِرَاءَةَ مَا كَتَبَتْ فِي دَفْتَرِهَا قَائِلَةً : لَمَّا اَلْتَحَقَ بِالْمَدْرَسَةِ الفَرَنْسِيَّةِ، ظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلاَمَاتُ النُّبُوغِ مِنْ خِلاَلِ تَفَوُّقِهِ فِي الدِّرَاسَةِ الابْتِدَائِيَّةِ، وَعِنْدَمَا انْتَقَلَتِ الْعَائِلَةُ إِلَى الْعَاصِمَةِ فِي سَنَةَ 1931 وَاصَلَ تَعَلُّمَهُ فِي بَقِيَّةِ مَرَاحِلِ التَّعْلِيمِ؛ فَتَخَطَّى مَرْحَلَتَي التَّعْلِيمِ الابْتِدَائِيِّ وَالْمُتَوَسِّطِ بِنَفْسِ الْمُسْتَوَى الَّذِي أَظْهَرَهُ بِمَدِينَةِ مَلْيَانَةَ. وَلَمَّا انْتَقَلَ إِلَى التَّعْلِيمِ الثَّانَوِيِّ، الْتَحَقَ بِثَانَوِيَّةِ بَنْ عَكْنُونَ [عِمَارَةِ رَشِيدْ حَالِيًّا]، ثُمَّ حُوِّلَ إِلَى (ثَانَوِيَّةِ بِيجُو) بِبَابِ الوَادِي [الأَمِيرْ عَبْدُ القَادِرِ حَالِيّا] سَنَةَ 1935.

وَقَبْلَ نِهَايَةِ السَّنَةِ الدِّرَاسِيَّةِ، تَشَاجَرَ مَعَ أَحَدِ

الطَّلَبَة الأوروبيّينَ الحَاقدينَ عَلَيْه بسَبَب تَفَوُّقه في الدِّرَاسَة فَوَجَّهَ لَهُ يُوسُفُ ركْلَةً، وَلَمَّا رَآهُ مديرُ الثَّانوية يَفْعَلُ ذَلك أمَرهُ بالْمُثُول بَيْنَ يَدَيْه وَأسْمَعَهُ عبَارَات جَرَحَتْ شُعُورَه وكبْريَاءَه أمَامَ زُملائه بالثَّانوية، فَكظَمَ غَيْظَهُ في تلْكَ اللّحْظَة. وَلكنْ أثْنَاءَ مُغَادرَة الثَّانويَّة عَبَّرَ يُوسفُ عَنْ غَيْظه الْمَكْبُوت، بكتَابَة عبَارة عَلى حَائط الثّانويَة "يَسْقُطُ مُدِيرُ الثَّانَوِيَّة".

أسْدلَ السّتَارُ تَحْتَ تَصْفيقَات الحَاضرينَ لَحَظَات قليلةً، ثُمَّ أزيحَ بَعْدَ ذَلكَ ليَظْهَرَ الْمَشهَدُ الأوَّل.

المشْهَدُ: مُديرٌ جَالسٌ وَرَاءَ مَكْتَبه، وَتلْميذٌ وَاقفٌ أمَامَهُ، يَحْملُ محْفَظَة.

الْمُديرُ: مَاذَا فَعَلْتَ أمْس؟

التِّلميذُ: لَقَدِ اعْتَدَى عَليَّ بَعضُ

الطَّلَبَة، فـرَدَدْتُ عَلـيْهم، لأنِـّي لَـمْ أحْتَمِـلْ سُخْرِيَتَهم.

المديـرُ: أقْـصِدُ مَـاذا فَعَـلْتَ عِـنْدَ مُـغَادَرَةِ الثَّانَوِيّــة؟

التّلميذُ لَم يَقُلْ شَيْئًا، لأنَّـهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَبْرِيرَ فعْلِه أمَامَ الْمُدِير، ولَمْ يَـخْطُرْ عَـلَى بَالِه أنَّ الْمَدِيرَ قَدْ عَلِم بِمَا فَعَلَ، وَبَدَأ يُفَكِّرُ فِي مَنْ أخبرَ الْمُدِير بِذَلك.

عَادَتْ ذِكْرَى إلَى مُوَاصَلَةِ الْقِراءَة :

بعـد مُرورِ أيَّامٍ قَلِـيلَةٍ عَلَى تِلْكَ الحَادثة أحيل يُوسفُ عَلَى الْمَجْلِس التّأديبِي بِالثَّانَوِيَّة وَعُوقِبَ بِالـطَّرْدِ مِنْهَا. فَتَّم نَـقْلُهُ إلىَ ثَانَـوِيةِ (بيجــو).

انْتَقَلَ يـوُسفُ إلىَ الثَّانَـوِيةِ الْجَدِيدة، رَغْمَ

بُعْد المسَافَة بَيْنَ مَسْكَنه وبَيْنَها، إلاّ أنَّ ذَلكَ لَمْ يُضْعَفْ منْ عَزيمته وإرَادَته علَى مُواصلَة الدّرَاسة بنَفْس الجدّ والاجْتهَاد. وقَبْل مْغَادرَته هذه الثّانويةَ تُوفّيَ أبُوه سَنَة 1937؛ غَيْرَ أَنَّ أمَّه قَرَّرَتْ أنْ تُسَاعدَه عَلَى تَخَطِّي هَذه العَقَبَة بسَلاَم؛ فَواصَلَ الدَّراسَةَ دُونَ أنْ يَتَأثَّرَ مَرْدُودُهَ الدّرَاسيُّ، بَلْ حَافَظَ عَلَى تَفَوُّقه حَتَّى تَحَصّلَ علَى شهادة البَكَالُوريَا سَنَةَ 1941.

كَانَتْ فَرْحَةُ أمِّه بالنَّجَاح كَبيرَةً، لأَنَّهُ كَانَ في مُسْتَوَى آمَالهَا وَطُمُوحَاتهَا، وَلَكنَّ فَرْحتَها كَانتْ أعظَمَ حينَمَا الْتَحَقَ بكُلّيَّة الطِّبِّ بجَامعة الجزائر سنة 1942، إلاّ أنَّهُ اعْتَرَضَتْه، عَقَبةٌ أخْرَى أصْعَبُ منْ كُلّ العَقَبَات الّتي وَاجَهَها منْ قبْلُ، حَيْثُ دَبَّرَ لَهُ أَحَدُ الأسَاتذَة العُنْصُريّين مَكيدَةً كَانَتْ سَبَبًا مُبَاشراً في انْقطَاعه عَنِ الدِّرَاسَة الجَامعيَّة فَتْرَةً منَ الزَّمن.

أسْدِلَ السِّتَارُ مَرَّةً أخرى لتَمْثِيل المَشْهَدِ الثَّانِي.

المشهد: ثلاثةُ شُبَّانٍ يُمَثِّلُون هَيْئَةَ التَّدْرِيس وشَابٌّ يُمَثِّلُ عَمِيدَ كُلّيةِ الطِّبِّ، وشَابٌّ آخرُ يُمَثِّلُ دَوْرَ يُوسُفَ.

عَمِيدُ الكلّيةِ: مَاذَا فَعَلْتَ، يَا يُوسف؟

يُوسُفُ: لَمْ أفْعَلْ شَيْئًا.

العَمِيدُ: لَقَدْ أخْبَرَنِي الْأسْتَاذُ "غُوتِي" -وهو منَ الأساتذَة المُعَمّرين الحاقدينَ عَلَى الطَّلبة الجَزَائرِيِّينَ، وَلاَسيّمَا المُتَفَوّقِين منْهُم- إنَّكَ اقْتَنَيْتَ كتَابًا يُمْنَعُ تَدَاوُلُهُ بَيْنَ الطَّلَبَة، وأتَيْتَ بِهِ إلَى الكُلّيَّة.

يُوسُفُ: الأسْتَاذُ غُوتي هُوَ الذي طَلَبَ منّي أنْ أشْتَرِيَ... وقَبْلَ أنْ يُتِمَّ يُوسُفُ كَلاَمَه

قَاطَعَهُ العَمِيدُ قَائِلاً:

لاَ تُكْمِلْ، الأسْتَاذُ لاَ يكْذِبُ، لَقَدْ خَالَفْتَ النِّظَامَ الدَّاخِلِيَّ لِلْكُلِّيَّة، وَبالتَّالِي لَنْ يُسْمَحَ لَكَ بِمُوَاصَلَةِ الدِّرَاسَةِ بَعْدَ اليَوْمِ بِكُلِّيَّتِنَا.

يُوسُفُ: إنّي بَرِيءٌ ممّا اتُّهِمْتُ به...

العَمِيدُ: أخْــرُجْ، وَلاَ تَعُدْ إِلَى الكُلِّيَّةِ مَرّةً أخْرَى.

تَبَسَّمَ الأستاذُ "غُوتِي" ابْتِسَامَةَ الشَّمَاتَةِ مُسْتَأذنًا مُديرَهُ بالخُرُوجِ، وَخَارِجَ مَكْتَبِ العَمِيدِ لَحِقَ بِيُوسُفَ وقَالَ لَه: أمْثَالُكَ لاَ يَحِقُّ لَهُمْ الدِّرَاسَةُ فِي كُلِّيَةِ الطِّبِّ.

بَعْدَ تمثيلِ الْمَشْهَد تقدَّمَتْ ذِكْرَى لِقِرَاءَةِ مَا دَوَّنَتْ:

لَمْ يَجِدْ يُوسُفُ بُدّاً مِنَ الْبَحْثِ عَنْ عَمَلٍ

شَريف يُساعدُ به أمَّه، وَفي نَفْس الْوَقْت يُمكّنهُ منْ مُتَابَعَة الدّرَاسَة عَنْ طَريق الْمُرَاسَلَة في كُلّيَة الْحُقُوق؛ فَكَانَ يَعْمَلُ بسُوق الجُمْلَة للْخُضَر والْفَوَاكه بحيّ بلْكُور، وَفي نَفْس الوَقْت يُتَابعُ دراسَتَه في العُلوم الْقَانُونيَّة عَنْ طَريق الْمُرَاسَلَة. ولَمَّا تحصَّل عَلَى إجَازَة في العُلُوم القَانُونيَّة، تَمَكّنَ منْ إعَادَة التَّسْجيل منْ جَديد في كُلّيَّة الطّبّ بَالجَامعَة عام 1943. ولَكَيْ يَضْمَنَ لنَفْسه مَصَاريفَ الدّرَاسَة، ويُخَفّفَ الْعبْءَ عَنْ كَاهل أمّه، عَملَ في السَّنَة نَفْسهَا مُرَاقبًا بثَانَويَّة بَنْ عَكْنُون (عَمَارَة رَشيد حَاليًا) الّتي كَانَ يَدْرُسُ فيهَا منْ قَبْلُ.

في هَذه الفَتْرَة أصْبَحَ يَنْشَطُ ضمْنَ أفْوَاج الْكَشَّافَة الإسْلاَميَّة. فَلمّا تَأزّمَ الوَضْعُ الاقْتصَاديُّ بالجزائر نَتيجَةَ الحَرْب العَالَميَّة الثَّانيَة، ومَا تَلاَهاَ منْ مَجَازرَ مُؤْلمَةٍ في 08

ماي 1945، غَادَر يوسُفُ الجزائرَ مُتوجّهًا إلى فَرَنْسَا في مَطْلَعِ 1946 لِلْبَحْثِ عَنْ عَمَلٍ وَمُتَابَعَةِ الدِّرَاسَةِ الْجَامِعِيَّةِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ.

أخَذَ نِضَالٌ مَكَانَ ذِكْرَى، وشَرَعَ فِي قِرَاءَةِ مَا أعَدَّه:

خلاَلَ دِرَاسَتِه بِفَرَنْسَا، انضمَّ إلَى صُفُوف حَركةِ الانْتِصَار لِلحريات الدّيمقراطية. غَيْرَ أنّهُ تَعَرّضَ إلَى عَقَبَةٍ أخْرى فِي مَسَارِه الدّراسّي، تَمَثَّلَتْ فِي قِيَامِ سُلْطَةِ مَدِينَةِ بَارِيس بِحَمْلَةٍ عُنْصُرِيَّةٍ ضدَّ الْمُهَاجِرِينَ الجَزَائِرِيّين، كَادَتْ أنْ تُثَبِّطَ عَزِيمَتَهُ لَوْلاَ الإرَادَةُ الْقَوِيَّةُ الّتي جَعَلَتْهُ رَغْمَ ذَلِكَ يُوَاصِلُ مَسَارَه الدِّرَاسِيَّ بِكُلِّ جِدٍّ وَثَبَاتٍ.

فِي نِهَايَةِ الأربعينيات انْضَمَّ يُوسُفُ إلَى المنظَّمَةِ الخَاصَّةِ "L’OS" بِفَرَنْسَا، حَيْثُ وَاصَلَ

نضَالَهُ. وَفِي عَام 1950 تَزَوَّجَ مِنْ فَرَنْسِية، كَانَتْ زَمِيلتَهُ فِي الدرَاسة، أَنْجَبَتْ مِنْهُ بِنْتَين. وَبَعْدَ إِنْهَائِه الدِّرَاسَةَ الجَامِعِيَّةَ سَنَةَ 1952 عَادَ إِلَى الْجَزَائِر.

اسْتَقَرّ بِمدينة تِيَارَت، حَيْثُ اسْتَأنَفَ نضَالَه السّياسِيِّ والتّعْبَوِيَّ، وتَمَكَّنَ مِنْ أَنْ يَفْتَحَ عِيَادَةً طِبِّيّةً بِالمدينة، بَعْدَ جَهدٍ جَهِيدٍ، رَغْمَ عَرَاقِيلِ الإِدَارَةِ الاسْتِعْمَارِيَّة.

وَمَعَ انْدِلاَعِ ثَوْرة التّحْرِير، اتّصَلَ بِطَبِيبٍ جَزَائِرِيّ كَانَ يَعْمَلُ جَرَّاحًا بِمستشفَى مَدِينَة مَلْيَانَةَ، سَاعَدَ الثَّوْرَةَ الجَزَائِرِيَّة مُنْذُ انْدِلاَعِهَا، مِنْ خِلاَل قِيَامه بِعِلاَجِ المجُاهَدين والمنُاضِلِين فِي مخَابِئَ سِرِّيَة، فَتَكرّرَت الاتّصَالاَتُ بَيْنَهُمَا حَتَّى تَعَلّمَ مِنْهُ بَعْضَ العَمَلِيّاتِ الجراحِيَّةِ البَسِيطَةِ.

أسْدلَ السِّتَارُ مَرّةً أخْرَى عَلَى أنْغَامِ نَشيد "مِنْ جبَالنا طَلَعَ صَوْتُ الأحْرَار..."، ولَمَّا أزِيحَ ظَهَرَ المَشْهَدُ الثَّالث.

المشْهَدُ الثَالثُ:

شَابٌّ يُمَثّلُ دَوْرَ طَبيب يَرْتَدي مِئْزَراً وَيَفْحَصُ أحَدَ الْمَرْضَى، وَشَخْصٌ آخَرُ يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ، وَمُمَرّضَةٌ فِي جَانبٍ آخَرَ تَكْتُبُ فِي دَفْتَرِهَا شَيْئًا مَا. يَخْرُجُ الْمَرِيضُ، فَيَتَقَدَّمُ الشَّخْصُ الَّذِي كَانَ يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ نحو الطَّبِيبِ.

الطَّبِيبُ: مَرْحَبًا بِكَ، لاَ بَأسَ عَلَيْكَ، مَاذَا بِكَ؟

الشَّخْصُ: لاشيء، الْحَمْدُ لِلّه عَلَى الصِّحَةِ وَالعَافِيةِ.

الطَّبِيبُ: مَا سَبَبُ زِيَارتِكَ إذَنْ؟

الشَّخْصُ: إنَّني مَبْعُوثٌ إلَيْكَ منْ مَسْؤول جَبْهَة التّحرير الْوَطَني بالنّاحية، إنَّهُ يَطلبُ منْكَ تَقْديمَ الْعلاَجِ لعَدَدٍ منْ الْمُجَاهدين الْمُصَابِينَ إصَابَاتٍ مُتَفَاوِتَةً فِي الْمَعْرَكَةِ الْأخِيرةِ.

الطَّبِيبُ: أيْنَ يُوجَدُ الْمُصَابُونَ؟

الشَّخْصُ: بِمَخْبَإٍ يَقَعُ فِي أطْرَافِ المَدِينَة.

فَكَّرَ الطَّبِيبُ قَليلاً، ثمّ قَالَ :كَيْفَ نَنْتَقِلُ إلَى المَخْبَأ؟

الشَّخْصُ: لَقَدْ اتَّخَذَ المَسْؤُولُ التَّدَابيرَ اللاَّزِمَةَ لذَلك. وَيُوجَدُ شخص فِي انتظَارنا فِي الشَّارِعِ الْمُجَاورِ ليتكفّل بِنَقلك إلَى حَيْث يَرْقُدُ الْمُصَابُونَ.

الطَّبِيبُ: هَل فَحَصَهُم طَبِيبٌ آخَرُ قَبْلِي؟

الشَخْصُ: لَمْ يَفْحَصْهُم أيُّ طَبيبٍ مِنْ قَبْلِك.

الطَّبِيبُ: هَل تُوجَدُ بِالْمَخْبَإِ أدْوِيَةٌ ؟

الـشَّـخْصُ: لاَ، المخبأ خَالٍ مِنْ الْأدْوِيّـةِ وَمِن كُلِّ مُسْتَلْزَمَاتِ العِلاَجِ.

عَادَ نِضَالٌ ليواصِلَ قِرَاءةَ مَا دَوَّنَهُ فقَال:

أخَذَ الطّبيبُ بَعْضَ الأدْوِيَة وَسَمَّاعَةَ الفَحْصِ بِسُرعةٍ، وَخَرَجَ مَع ذَلكَ الشَّخْصِ المنُاضلِ لِمُرَافَقَتِه إلىَ المَخْبَإِ، وَفَوْرَ وُصُولِهِمَا شَرَعَ الطَّبِيبُ فِي فَحْصِ المُجَاهدين المُصَابِينَ، وكَتب لكلِّ واحدٍ منْهُم وَصْفَةً طِبِّيَّةً خَاصّة، وَطَلَبَ منْ المَسؤُول عَلَى المَخْبَإِ شرَاءَ الأدْوِيَّة منْ صَيْدَلِيَاتٍ مُخْتَلفَةَ. ثُمّ عَادَ إلىَ بَيْتِه فِي نَفْسِ اللّيلَة. بَقِيَ الْحَكِيمُ يُوسُفُ يَتَرَدَّدُ عَلَى هَذَا المَخْبَإِ للإشْرَاف عَلَى عِلاَجِ المجاهدين الْمَرْضَى حَتَى تَمَاثَلُوا لِلشّفاء.

المَشْهَدُ الرَّابِعُ:

بَعْدَ نِضَالٍ صَعِدَ الشَّابُّ نَاصر وَأَخَذَ يَقْرَأُ مَا كَانَ مُدَوَّنًا فِي دَفْتَرِهِ:

الطَّبِيبُ يُوسُفُ فِي مَكْتَبِهِ مُعْتَكِفٌ عَلَى كِتَابَةِ أَوْرَاقٍ.

يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْمُجَاهِدُ الَّذِي أَرْسِلَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَلَمَّا رَآهُ يَكْتُبُ سَأَلَهُ:

مَاذَا تَكْتُبُ يَا حَكِيمُ؟

الطَّبِيبُ:

أُحَرِّرُ مَنْشُورَاتٍ وَرَسَائِلَ، أُوَجِّهُهَا إِلَى الْمُتَطَوِّعِينَ فِي قُوَّاتِ الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ.

الْمُجَاهِدُ:

مَاذَا تَقُولُ لَهُمْ؟ اشْرَحْ لِي هَذِهِ الْفِكْرَةَ الَّتِي تَدُورُ فِي رَأْسِكَ عَلِّي أُسَاعِدُكَ بِرَأْيٍ.

الطَّبِيبُ:

إنَّ الكَثيرَ منْ المُتَطوّعين في صُفُوف القُوّات الفَرَنْسيَّة منْ دُوَل إفريقْيَا وَأوروبَا الشَّرْقيّة، ومَنْ فَرَنْسَا نَفْسهَا يَجْهَلُونَ حَقيقَةَ الثَّورَة الجَزَائرِيَّة وَأهْدَافَها، لذَلكَ أقُومُ بتَعْريفهمْ بهَا منْ خلاَل هَذه المنْشُورَات، الَّتي تُوَزَّعُ في الأمَاكن التّي يَرْتَادُونَها، فَلَعَلَّهُمْ عنْدَمَا يَطَّلعُونَ عَلَى حَقيقَة الْأمْر، يَتْرُكُونَ الْجَيْشَ الفَرَنْسيَّ الَّذي يَرْتَكبُ الْجَرَائمَ الْوَحْشيَّةَ ضدَّ الجزَائريّين.

ظَلَّ يُوسُف بَنْ دَامَرْجي يَقُومُ بوَاجبَاته الطّبّيَة وَالنّضَاليَّة، وَيَجْتَهدُ في إقْنَاع عَنَاصر اللَّفيف الْأجْنبي بالتَّخَلي عَنْ مُسَاعَدَة فَرَنْسَا ضدَّ الْجَزَائر عَنْ طَريق الْمَنْشُورَاتَ وَغَيْرها، حَتَّى نَالَ شَرَفَ الشَّهادَة في مَيْدَان الْمَعْرَكَة. ولا شَكَّ أنَّهُ أقْنَعَ عَدَداً منْهُمْ، فَانْسَحَبَ بَعْضُهُم منَ

الجيْشِ الفَرَنسي، وَالْتَحَقَ بَعْضُهُم بِالثَّوْرَةِ الجزائرية.

المَشْهَدُ الأخِيْرُ:

بَعْدَ نَاصر صَعدَ الشَّابُّ خَالد وَهُو يَلْبَسُ اللّبَاسَ الْعَسْكَرِيَّ لِيَقْرَأَ مَا أعَدَّهُ فَقَال:

لَمَّا تَيَقَّنَ الْحَكيمُ يُوسُفُ أنَّ أمَرَهُ سَيَنْكَشفُ لاَ مَحَالَةَ، لَمْ يَجدْ بُدًّا منَ اللّحَاق بالمجَاهدين في الْجبَال. فَلَمَّا سَمعُوا بالْتحَاقه بالثَّوْرَة، شَعَرَ كَثيرٌ منْهُمْ بارْتيَاحٍ كَبير، لَكَوْنه سَيؤَدّي دَوْراً كَبيراً في المَجَال الطّبّي، منْ خلاَل إشْرَافه عَلَى المَرْضَى وَالْجَرْحَى وَعلاَجهمْ في الْمَخَابئ، وَالإشْرَاف عَلَى تَكْوين المُمَرّضَات والممرّضين، رَغْمَ قلّة الوَسَائل المتوفّرة، وصُعُوبَة التّنقُّل في الجبَال وكَثَافَة الْحَملاَت الْعَسْكَريَّة المُوَجّهة ضدّ الْمُجَاهدين؛ علاوة عَلَى إجراء بَعْضَ العمليَّات

الجراحية البسيطة، وتقديم الرعاية الصحيَّة للمواطنين، لأنّهُ كانَ منْ دُعاة فكْرَة (الطّبّ للجَميع). وظَلَّ عَلَى هَذه الفكْرَة بَعْدَ الْتحَاقه بالثّوْرَة، ولكنَّ ظُرُوفَ الثَّورَة حَالَتْ دُونَ تَحْقيق هَذه الفكْرَة الَّتي ظَلَّ يُنَادي بهَا حَتَّى اسْتُشْهدَ عَلَى أرض المَعْركَة.

في 19 منْ شَهْر أوتْ سَنَةَ 1958، دَعَتْ قيادَةُ الْمنْطَقَة السَّادسَة الَّتي كَانَ يَنْشَطُ بهَا الْحَكيمُ يُوسُفَ بالولاَيَة التّاريخية الْخَامسَة بالْغَرْب الْجَزَائري، إلَى عَقْد اجْتمَاعٍ بمَركَز (تافرنت) لإعَادَة النَّظَرِ في ضَبْطِ الأوْضَاعِ العَسْكَريَّة بالولاية.

وَفي الْيَوْم الْمُوالي، أخْبَرَتْ حراسَةُ الْمَركَز بأنَّ القُوَّات الفَرَنْسيَّة تَتَقَدّمُ نَحْوَهُمْ منْ عدَّة جهَات، واسْتَمَرّتْ في زَحْفهَا إلىَ أنْ أحْكَمَتِ

الحِصَارَ عَلَى المكَانِ الّذي انْعَقَدَ فيه الاجتماعُ، فَوقَعَتْ مُوَاجَهَةٌ بَيْنَ الطّرَفَيْن، وَاشْتَدَّ لَهيبُهَا فَاسْتَمَاتَ المُجَاهدُون فِي الدّفَاعِ عَنْ أنفسهم بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَبَسَالَةٍ إلَى أنْ نَالُوا جَميعًا شَرَفَ الشَّهَادَةِ عَلَى أرْضِ هَذه المَعْرَكَةِ رَغْمَ أنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُتَكَافِئَةً بَيْنَ الطَّرَفين.

وَاجَهَ يوسُفُ وَرفَاقُه المَوْقفَ بِصَلاَبَةٍ وَعَزْمٍ وَصُمُودٍ، قَبْلَ أنْ يَنَالَ شَرَفَ الشَّهَادَةِ مَعَ عَدَدٍ مِنْ إِخْوَانِه.

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار